الى قارة اوربا

بقلم: اورخان محمد علي

"هذه قصة انتقال العثمانيين الى روملي ، اي قارة اوربا ، وذلك في عهد السلطان اورخان ابن السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية".

كانت الغرفة الكبيرة مملوءة تماماً برؤساء عشيرة "قابي" وبرجالها الابرزين.. كان الجميع في انتظار رئيسهم "اورخان" الذي ارسل يستدعيهم ليشاورهم في امر هام لم يفصح عنه...

ماالامر؟ لماذا استدعاهم كلهم؟ اهناك معاهدة جديدة مع البيزنطيين يريد ان يأخذ رأيهم حولها؟... لم يكن احد يدري ، وكان الهمس يدور بين الجميع...

مالبث الهمس ان توقف عندما دخل رئيس العشيرة الغرفة يتبعه ابنه الاكبر "سليمان باشا"... سلم على الجميع بسلام الاسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... ردوا عليه السلام وهم يتطلعون اليه وينتظرون حديثه...

اجال زعيمهم "اورخان" نظره بين الجالسين ، ثم بدأ حديثه معهم قائلا:

- ياإخواني ويااصدقاء السلاح!... تعلمون اننا استولينا على مدينة "بورصه" وجعلناها عاصمة لمملكتنا ، فحققنا بذلك وصية والدنا المرحوم "عثمان" ، كما وفقنا الله تعالى لفتح جميع حصون ومعاقل الروم في هذه المنطقة حتى اضطر امبراطورهم "يوانيس كانتكوزينوس السادس" الى عقد الصلح معنا... ولكن لايكفي هذا ياإخواني ، اذ ان علينا ان نعبر الى "روملي" لنستمر في الفتوحات هناك ايضاً... فما رأيكم وما قولكم؟

قام الغازي "فاضل بك" وكان من قواد العشيرة وهتف وقد اخذ منه التأثر كل مأخذ:

- الله اكبر...الله اكبر... لقد كنا ننتظر هذه البشرى منذ وقت طويل... بارك الله فيكم ، ونحن جميعاً من ورائك.

وسرى الانفعال والحماسة الى الآخرين ، فقام كل واحد يحتضن الآخر ويهنئه. هنا مال "سليمان" وهمس في اذن والده "اورخان":

- الا تجعلني على رأس هذه الحملة ياأبي؟

ابتسم الوالد من رغبة وطموح ابنه الشاب ، ولكنه تردد قليلاً ، فهذه الحملة تحتاج الى حنكة قائد والى تجربة شخص متمرس ، لذا فقد استشار قواده.

- ان ابني "سليمان" يرغب في قيادة هذه الحملة... فماذا ترون؟

كان قواده يعرفون الامير "سليمان"، حق المعرفة، ويعرفون بسالته وشجاعته في المعارك التي خاضها معهم، لذا قالوا جميعاً:

- حسناً يفعل، ونحن تحت امرته وطوع بنانه.

- اذن نوليه هذه القيادة بعد التوكل على الله... ولكن ياإخواني ارجو ان تساعدوه وان تشيروا عليه، وعليه ان يستشيركم في كل امر في هذه الحملة. وانفض الاجتماع.

وفي صباح احد الايام كانت هناك حركة دائبة في معسكر المسلمين، اذ حدت السيوف والرماح، والبست الدروع وتعالى صهيل الخيول... وبعد قليل توجه فرسان الاسلام الى الشمال ينهبون الارض نهباً حتى انتهى البر وظهر امامهم البحر... البحر الذي يفصلهم عن قارة اوربا... عن قارة جديدة سينشرون فيها الاسلام.

عسكر المسلمون هناك ريثما يجدوا حلاً لعبور هذا البحر... كان الامير "سليمان" دائم التفكير في كيفية حل هذه المشكلة، وبينما هو واقف في الساحل يتطلع ساهماً الى الضفة الاخرى من البحر اقترب منه الغازي "فاضل بك" ومعه الفارس (أجه بَيْ) وسأله:

- بماذا تفكر ايها الامير؟

- افكر في كيفية عبور هذا البحر الى الضفة الاخرى دون ان يشعر الاعداء بذلك.

- ان اصدرتم لنا امركم فسنعبر نحن

- كيف؟ ومن اين؟

- علمنا ان هناك مضيقاً قريباً نستطيع العبور عنده، ويوجد لهم حصن هناك.

- حسناً!... اعبروا اذن، ولكن في مهمة استطلاعية في اول الامر.

ذهبوا الى المضيق وصنعوا هناك طوفاً صغيراً من جذوع الاشجار، وعندما حل المساء ركب الغازي (فاضل بك) والفارس (اجه بْي) مع عدد قليل من الفرسان هذا الطوف وانتقلوا به الى الضفة الاخرى، وهناك راوا احد الاشخاص وهو نائم فالقوا القبض عليه ورجعوا به الى قائدهم (سليمان باشا)... كان الأسير يرتجف من الخوف اذ ايقن انهم سيقتلونه ولكن (سليمان باشا) هدأ من روعه واطعمه واهدى اليه حلة جديدة وهدايا اخرى جعلته يطير من الفرح، ثم سأله:

- أتستطيع ان تدلنا على منفذ نستطيع الدخول منه الى الحصن دون ان يحس بنا أحد؟

- أجل سيدي!... استطيع ذلك اذ انني اعرف الحصن جيدا.
- لو فعلت هذا وتحققنا من صدق كلامك فساجزل لك العطاء.
- انا اعدكم ياسيدي... لن يحس بنا احد.

وسرعان ماصدر "سليمان باشا" امره بصنع اطواف اخرى اكبر حجماً... وفي مساء اليوم الثاني وبعد ان تم صنع الاطواف اختار ثمانين صنديداً من فرسانه ركبوا الاطواف وانتقلوا به في جنح الظلام الى الضفة الاخرى بكل هدوء ودون احداث اي جلبة ، وهناك دلهم هذا الشخص على ممر سري[1]...

تسلل (سليمان باشا) وجنوده الثمانون الى الحصن بكل هدوء.. كان الموسم موسم حصاد وجمع للفواكه ، لذا فلم يصعب عليهم الاستيلاء على الحصن ، ولم تتيسر المقاومة للاعداء فاستسلموا ، فحقنوا بذلك دماءهم اذ لم يتعرض لهم المسلمون باي اذى.

ولم يدع (سليمان باشا) الوقت يمر دون فائدة ، فارسل بعض رجاله حيث استولوا على السفن الراسية هناك والعائدة للحصن ، وانتقلوا بها الى الضفة الاخرى ونقلوا بقية الجنود الموجودين هناك.

وقبل ان ينتشر هذا الخبر ، اي خبر استيلاء المسلمين على الحصن ، هاجم المسلمون حصناً آخر قريب وفتحوه ايضاً فاصبحوا يملكون حصنين كبيرين كموضع قدم لهم في قارة جديدة يطأوها لاول مرة.

كانت هذه هي البداية... بداية انتشار المسلمين في قارة اخرى ستكون لهم فيها فيما بعد صولات وجولات وفتوحات كبيرة.

---

(١) تذكر بعض المصادر التاريخية ان هذا الممر السري كان قناة المياه التي تصرف المياه القذرة للحصن وترمي بها في البحر.

* *

مثال في تهوين امر الدنيا:

روى انه استقرض احمد بن خضرويه من رجل مائة الف درهم فقال له الرجل:

- اليس انتم الزهاد في الدنيا؟ ما تصنع بهذه الدراهم؟

قال: اشتري بها لقمة فاضعها في فم مؤمن ولا اجترىء ان اسأل ثواباً من الله تعالى. قال: ولم؟

قال: لأن الدنيا كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة ، وما مائة الف درهم في الدنيا من جناح بعوضة لو اخذتها فطلبت بها شيئاً مماالذي تعطى بها والدنيا كلها لها هذا القدر".